البحث عن أفكار جديدة
وطريقة جديدة للبحث

ستكون الأجزاء السابقة قد أدَّت غرضها إذا شخصت شيئاً من الاختمار الذي أخذ يبدو للعيان في العالم التاريخي حوالي سنة ١٩٥٥، عند كل من اللبراليين والمؤرخين الماركسيين. ولا ريب في أن مثل هذا العرض، لابد أن يؤكد على النقد والتنوع على حساب الأساليب العرفية والجامدة، ويميل إلى المبالغة في مقدار التساؤل الذاتي الذي كان سائدا بين المؤرخين الذين يمارسون كتابة التاريخ، وقد عارض معظم المؤرخين، وما زالوا يعارضون، أي ادعاء بأن طرقهم ومواقفهم غير كافية، واكتفوا بكتابة تاريخ سردي من النوع التقليدي. وهذه حقيقة من الحماقة تجاهلها، أو التقليل من قيمتها. وسنأتي فيما بعد إلى مسألة استمرار شعبية التاريخ السردي ومكانته في عمل المؤرخ[١٠٣]. أما هنا فنكتفي بالقول: إن الاتجاه بعد سنة ١٩٥٥ صار نحو الكشف عن مسارات من البحث غير المسارات التقليدية.

لقد كان الدافع وراء هذه التطورات الجديدة، طبعاً، متباينا في مختلف البلاد والمناطق، وهذا لا يعني أنه لم تكن توجد عملية إخصاب دخيلة مستمرة وسريعة التزايد. بل بالعكس فإن سهولة المواصلات في عصر السفرات الجوية، والتحركات الجديدة والزيارات الكثيرة التي يقوم بها المؤرخ، من بلد إلى آخر، وخاصة من أوربا الغربية إلى الولايات المتحدة، وعدد من المؤتمرات الدولية. وفي حالة الاتحاد السوفياتي والبلاد الأخرى من أوربا الشرقية. فإن تخفيف السيطرة على الاتصالات بين المؤرخين الشيوعيين وغير الشيوعيين الذي تلا الاشتراك السوفياتي في المؤتمر الدولي العاشر للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٥، كل هذه ساهمت بتبادل مثمر للأفكار.

(١٠٣) أنظر أدناه ص ٢٦٢.

ورغم ذلك فان البحث عن أفكار جديدة وطرق جديدة، سلك طرقاً مختلفة، باختلاف نقاط البداية في مختلف البلاد والأقاليم، فلنبدأ بالولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، وأوربا الغربية، حيث كانت الميادين العامة للتجديد والتقدم[١٠٤]، وإذا كانت أهم ظاهرة في المرحلة الحالية هي عملية التمازج والاختلاط، حيث إن المؤرخين في مختلف أجزاء المعمورة يستوعبون ويكشفون ويصفون ما يبدعه زملاؤهم من أساليب فنية وآراء جديدة، ومع هذا فمن المهم أن نعرض باختصار نقاط البداية المختلفة للتطور الحديث.

إن الظاهرة البارزة في الولايات المتحدة، هي الازدياد التدريجي للارتباط بين التاريخ والعلوم الاجتماعية أو السلوكية[١٠٥]، وهذا يرجع بشكل واضح إلى الأربعينات والحرب العالمية الثانية، حيث التنظيم الاقتصادي الاميركي المعروف Newdeal التي سبقتها، قد فتحت فرصاً واسعة لعلماء السياسة والاجتماع، وتم اتفاق عام لتقديم الدليل الواقعي على القيمة العملية لتقنيات بحوثهم والطرق الكمية مع الأشكال التقليدية للتحليل التاريخي. ولا يخامرنا إلا قليل من الشك في أن الانجازات العملية لعلم الاجتماع والأغراض التي يتوخاها من تطبيق طريقة بحث ذات أثر أقوى وغاية أبعد، كانت المحفز الرئيسي الذي دفع المؤرخين في الولايات المتحدة إلى إعادة فحص فرضياتهم وطرقهم المورثين، وكان تقدم وتبلور هذا الفحص الجديد في بدايته قلقاً ومتردداً، ويمكن تتبع بداياته في التقارير والمطبوعات المتتابعة لمجلس بحوث علم

---

(١٠٤) دخلت آسيا وإفريقية الصورة في تاريخ متأخر إلى حد ما، أي تقريباً منذ ١٩٦٠، وهي التي تعرض أحياناً «بسنة إفريقية» - وسيدرس أثرهما على الدراسة التاريخية بصورة منفصلة أنظر أدناه ج ٤ ص ٣٦٩-٣٧٥.

(١٠٥) الملاحظات التالية مستندة على عرض عام مقتضب في كتاب «الدراسة التأريخية في الغرب عن شافر، وفرنسوا وومسن وملن ١٩٦٨ ص ١٧٥-١٨٩. وقد اتبعه بوجي في كتابه «الولايات المتحدة التاريخ السياسي الجديد» (١٩٦٨ انظر أيضاً سافيت (مشرف) «التأريخ الامريكي والعلوم الأجتماعية» (١٩٦٤) وكتاب «علم الاجتماع والتأريخ: النظرية والبحث» الذى أشرف على طبعه كاهمان وبوسكوف (١٩٦٤).

الاجتماع(١٠٦) . ومن الواضح أن هذه المؤسسة أصبحت من خلال العرض المستهدف لامكانياتها، مؤثرا قوياً في تبديل نظرة المؤرخين الأمريكيين خلال الربع الأخير من هذا القرن.

لقد كان نجاحها راجعاً ايضاً الى أنها تستطيع البناء على التيارات العملية التطبيقية والبراغماطيقية الموغلة في قدمها في التاريخ الأمريكي. لقد كانت في الولايات المتحدة جذور لاتهام التاريخ، شأن كافة المواضيع الفكرية الأخرى، بأنه أداة للتكيف العملي(١٠٧) ، وأنه ليس له مبرر غير ذلك، وقد ضعف هذا التيار البراغماطيقي مؤقتاً بتأثير التأريخية الألمانية، والشكوك والتساؤلات الذاتية التي ولدتها الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات. غير أنه سرعان ما استعاد كيانه، عندما استأنفت الولايات المتحدة تقدمها المادي المرموق بعد سنة ١٩٤٥ غير انها فعلت ذلك على أُسس جديدة وبأساليب وتقنيات جديدة، ولنبدأ بالقول بأنه إذا كان المؤرخون الأمريكيون قد اعتمدوا كثيرا على أفكار العلماء الاوروبيين وخاصة على ماكس ويبر ومعالجته التحليلية واستعمال «الأشكال»، غير أن أعمالهم اتخذت منذ الإربعينات طابعاً امريكيا مميزاً حيث تبنوا «أفكاراً مشجعة للكشف وأدوات عمل علماء الاجتماع من أمثال لازار سفيلد، وعلماء السياسة من أمثال لبسيت، وعلماء الاقتصاد من أمثال كوزنتيش ولا وكيف. وكانت النتيجة «ثورة داخلية» كان من روادها جيمس س مالين، وميرل كورتي، وتوماس س كوجران، ووليم . و. ايديلوتي(١٠٨) لقد رد هؤلاء على ترهل عرض التحليل التاريخي العرفي،

---

(١٠٦) «النظرية والتطبيق في الدراسة التاريخية (١٩٤٦) «العلوم الاجتماعية في الدراسة التاريخية (١٩٥٤) «التعميم في كتابة التأريخ» أشرف على نشره ل. جو تشلك (١٩٦٣)، التاريخ كعلم اجتماع (أشرف على نشره لانديس وتللي ١٩٧١).

(١٠٧) انظر ستراوت: (الثورة البراغماطيقية في التاريخ الامريكي) (١٩٥٨) ص ١٥٩.

(١٠٨) انظر: كوجران: الثورة الداخلية: مقالات عن العلوم الاجتماعية في التأريخ» (١٩٦٤) امالين «عن طبيعة التأريخ: مقالات عن التاريخ والاختلافات» (١٩٥٤)، ايديلوتي» التقدير الكمي في التاريخ (١٩٦٦).

وكانوا مقتنعين بأنه انغمر في الظواهر والشكليات. وفي الحوادث العرضية والتفرد والفرد، إلى درجة أنه «لم يفلح في جلب الانتباه إلى بعض التطورات المهمة جداً في ماضينا السياسي»، وقد كرسوا أنفسهم لاستغلال طرق، ونتائج ومضامين تقنيات القياس التي طورتها العلوم الاجتماعية والسلوكية، وكان من المحتم احتدام الجدل حول الحجج التي قدمت لمصلحة المعالجة الجديدة[١٠٩]، غير أنه بقيت أبرز مساهمة للولايات المتحدة، هي أنها أظهرت للعالم كله الجزء المهم من عمل المؤرخ الذي تستطيع أن تقوم به تحليل المعلومات، والتقنيات العددية، والمطابقات الأيكولوجية، والقياسات الاقتصادية. والأدوات الفكرية الأخرى الأكثر تطوراً.

تابعت التطورات الأمريكية سيرها منذ السنوات الأخيرة للنظام الاقتصادي الذي أدخله روزفلت وأيام الحرب العالمية الثانية، أما في الاتحاد السوفياتي[١١٠] فإن الصورة الجديدة للتقدم يمكن رصدها كما رأينا في حوالي ١٩٥٥-٦[١١١]، فبعد أشهر قليلة من وفاة ستالين سنة

---

(١٠٩) عن عرض مؤدب وساخر لرد الفصل المعارض أنظر: وودورد «التاريخ والثقافة الثالثة» (١٩٦٨).

(١١٠) انظر اعلاه ص ٤٢ - ٣

(١١١) فيما عدا الكتب العامة التي اشرنا اليها في ص ٢٥٠ أعلاه، يوجد عرض كامل عن علم التاريخ السوفياتي بين المؤتمرين العشرين والثاني والعشرين للحزب، نشره دروزنين «علم التاريخ السوفياتي بين المؤتمرين العشرين والثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي» (مجلدان ١٩٦٢-٦٣). وعن الوضع المعاصر انظر «علم التاريخ وبعض المشاكل المعاصرة» (١٩٦٩)، وانظر بصورة خاصة عددا من المقالات عن التطورات الأخيرة، وقد نشرت في «قضايا التاريخ، ١٩٥٠ عدد ٥ «بعض نتائج عمل المعهد التاريخي لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي منذ سنة ١٩٥٩» سنة ١٩٦٣ رقم ١ «واجبات علم التاريخ» ١٩٦٨، رقم ١ «يوبيل الجمعية العامة لقسم التاريخ في اكاديمية العلوم للاتحاد السوفياتي» (١٩٦٨) رقم ٥ «الانجازات البارزة لعلم التاريخ في سنة ١٩٦٧ (١٩٦٩) رقم ٨ «جبهات جديدة للمؤرخين السوفيات»)١٩٦٩) رقم ٩ «استنتاجات المؤتمر الدولي للأحزاب الشيوعية والعمالية، وأهداف علم التاريخ»؟ توميروف «أهمية علم التاريخ» (١٩٦٩). =

١٩٥٣، أمكن تشخيص إشارات أكثر نقدية في صفحات «قضايا التاريخ» وفي بداية سنة ١٩٥٦، وقبل انعقاد المؤتمر العشرين للحزب، قامت مناقشة صريحة واسعة حول تثبيت نموذج للتأريخ السوفياتي في مؤتمر عقد بموسكو[١١٢]، غير أن المؤتمر العشرين للحزب هو الذي استقرت فيه الاتجاهات الجديدة، رغم الشكوك التي أُثيرت على اثارها البعيدة[١١٣]، وتؤيد الأدلة بأن التاريخ السوفياتي رسا على «مرحلة جديدة من التطور»[١١٤]، بعد سنة ١٩٥٥ من الأدلة الوافية التي لا تحتاج إلى تفاصيل هي المظاهر الخارجية للتطور، وهي ظهور معاهد جديدة ومجلات جديدة، ومراكز جديدة للدراسات التاريخية في اوكرانيا وأقاليم القوقاس، وآسيا الوسطى والجمهوريات الأخرى، وكذلك الميادين المتوسعة للأبحاث، والتخصص المتنامي المتجلي في إنشاء معاهد خاصة لدراسة أمريكا اللاتينية وإفريقية وآسيا، والمناطق الأخرى - وفيما عدا رد الفعل ضد الاتجاهات السياسية المبالغ فيها للفترة الستالينية - بما في ذلك عبادة الشخصيات مثل ايفان الرابع والتمجيد الوطني لماضي روسيا، فإن الظاهرة العامة هي رفض «الدوغماطيقية»، والاهتمام بالمقتطفات والتأكيد على الحاجة إلى الحقائق.

= أما الكتابات الغربية فأنظر منها بصورة خاصة «كتابة التاريخ بعد ستالين» في «التاريخ المعاصر في المرآة السوفياتية» المذكورة اعلاه اشرف على نشره كيب وبربسي (١٩٦٤)، ميندل «نظريات التاريخ السوفياتي الحالية» (١٩٦٦)، وانظر مقالات بونديف في «التاريخ والنظرية» مجلد ٤ (١٩٦٤) مجلد ٦ (١٩٦٧).

(١١٢) انظر التقرير عن «الاتجاهات العامة في التاريخ المعاصر للمؤتمر العاشر للعلوم التاريخية» (١٩٥٦) والتعليقات في كتاب «التاريخ المعاصر في المرآة السوفياتية» المذكور أعلاه (١٩٦٤) ص ١٢٣-٤ الذي أشرف على طبعه كيب وبرسي، و «الثقافة السوفياتية عدد ٤-٥ (مايس - حزيران ١٩٥٦) ص ٢.

(١١٣) انظر بيروجكوف «علم التاريخ السوفياتي في «قضايا التاريخ» (١٩٥٦-١٩٥٩) (١٩٦٠).

(١١٤) هذا هو عنوان مقال رئيس. «العلم التأريخي السوفياتي في مرحلة جديدة من التطور» في ١٩٦٠ عدد ٨.

وكنتيجة لعبادة الفرد أكد س.م.زوكوف على أن المؤرخين السوفيات كانوا يعانون من الشلل السيكولوجي، ولذلك فإنهم بدلاً من السير من الحقائق إلى التعميمات، كانوا يكررون وبدون نقد «وصفات بديهية»، ويختارون حقائق لإسناد استنتاجات نظرية قد أعدتها مسبقاً كلاسيكليات الماركسية اللينينية(١١٥).

ردّ المؤرخون على ذلك بالتأكيد على أن التاريخ، كما يقول ب.ف.بور شنيف، هو الوضوح بأقصى درجاته(١١٦)، أما السيدة بانكراتوفا وهي آنذاك محررة «قضايا التاريخ» فقد دعت المؤرخين السوفيات إلى جعل كتاباتهم تستند على «الحقائق الدقيقة التي لا جدال فيها» على حد قول لينين وأن ينهوا سطوة المادة الجافة التي قال عنها بعد ذلك ف. ج. تروخا توفسكي، وهو الذي تلاها في رئاسة تحرير «قضايا التاريخ» أنها لا تؤدي إلا إلى «إفقار التاريخ»، ومن النتائج التي نادى بها تروخا توفسكي وعدد كبير غيره، هي دعوة عاجلة للمؤرخين لكتابة «تاريخ حَيٍّ منظم»، أو بعبارة أخرى «تاريخ له لحم ودم وعواطف ومشاعر»، ويغني الألوان والتنوع الذي يجده المرء في الحياة الحقيقية(١١٧)، وإن صور المادية التاريخية، كما قال ا.ي.جوريفيج مذكراً المؤرخين، هي للبحث من حيث

---

(١١٥) انظر «تقرير عن المؤتمر العام للمؤرخين عن وسائل تحسين تدريب المؤرخين ومدرس التاريخ، المنعقد في موسكو في ديسمبر ١٩٦٢» المنشور في «قضايا التاريخ» ١٩٦٣ العدد ٢ والبحث الاساسي أعده ب. ن بونجماريف في ذلك المؤتمر ونشر في محاضر المؤتمر مع تلخيص واف باللغة الانكليزية «الواجبات التي تواجه علم التاريخ وتدرب المؤرخين ومدرسي التاريخ.

(١١٦) «التاريخ وعلم الاجتماع» (١٩٦٤، ص ٣١٣)

(١١٧) أنظر عن أقوال بانكراتوفا: برافدا ٢٢ شباط ١٩٥٦، والمؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. سجل مصور. موسكو ١٩٥٦) ج ١ أما أقوال تروخانوفسكي وبونوماريف والآخرين فقد ذكرت في المقال الذي كتب عن مناقشات طرق البحث في التأريخ في الاكاديمية العلوم ١٩٦٤ ونشرت بعنوان عام «حول مسائل طرق البحث في العلم التأريخي في «قضايا التاريخ» ١٩٦٤ رقم ٣، وكذلك في التاريخ وعلم الاجتماع المذكور أعلاه.

العموم دلائل مرشدة في طبيعة المعرفة وليست مسلّمات مسبقة، أو أوصاف لأصل الواقع وأن المؤرخ قد يضطر إلى دراسة حقائق «لا تلعب دوراً في السلسلة السببية لأحداث الماضي» ولكنها ذات أهمية للمعاصرين، غير أن عمله الاساس هو، أن يختبر مدى تطبيقها في الحالات الواضحة، وبهذه الطريقة ينقيها أو يكيفها أو يعيد تعريفها عند الضرورة[١١٨].

لقد كان وراء هذه المتطلبات المحدودة العملية مبدأ عام ذو أهمية أوسع، هو إعادة التأكيد على استقلال التاريخ والبحث التاريخي. وإذا أريد للتاريخ أن يتمكن من إنجاز واجبه الحقيقي، فالمطلوب الآن تدقيق واضح للفصل بين فلسفة المجتمع (المادية التاريخية)، ونظرية المجتمع (علم الاجتماع) وتاريخ المجتمع (العلوم التاريخية)، والاعتراف بالاستقلال النسبي لدور كل منها[١١٩]، وفي سنة ١٩٦٢ كتب الماركسي البلغاري ن ستيفانوف مصراً على أن تاريخ العملية التاريخية، ينبغي أن يتميز بشكل واضح عن نظرية العملية التاريخية[١٢٠]، وإلا تولد خطر احتمال انكماش الفكر الماركسي إلى عقيدة خالية من قوة التفسير والبصيرة النفاذة في المجتمع، بدلاً من استمرار بقائها سلاحاً قوياً للتحليل النقدي. والحقائق العامة للماركسية وقد أشار م.ت يوفشوك لا تستطيع ملائمة أي عصر أو تصبح صالحة للتطبيق عليه ما لم تنمّها وتوضحها وتغنها مادة جديدة، وأن تحل محل الفرضيات الفردية الآيلة إلى الزوال، أفكار جديدة تطابق الأحوال التاريخية الجديدة[١٢١].

---

(١١٨) انظر: «القانون العام والانتظام الواضح في التأريخ» (١٩٦٥).

(١١٩) انظر «طريقة معالجة علم التاريخ» المذكور اعلاه، ومقال فيذوسيف وفرانسيف «حول عمل لإيجاد مسائل في طرق بحث التأريخ «الذي كان أساس تلك المناقشة في «قضايا التاريخ» ١٩٦٤ رقم ٣ وفي «التأريخ وعلم الاجتماع وانظر ايضاً تحليل بونديف في «التأريخ والنظرية م ٤ (١٩٦٤)» ص ٧٥ - ٥٧٧م ٦ (١٩٦٧) ص ٤٥١.

(١٢٠) ستيفانوف «مسائل طرق البحث في العالم التاريخي» (١٩٦٢).

(١٢١) انظر: بونديف. المذكور أعلاه (١٩٦٧) ص ٤٥٤.

إن التبدلات التي حدثت في علم التاريخ السوفياتي سنة ١٩٥٦ أدت:

أولاً: إلى توسع كبير فيما يتعلق بالوصول إلى المصادر واختيار مواضيع البحث وعرض الحقائق، ونتج عن هذا امتداد عمل المؤرخين السوفيات اليوم إلى نطاق واسع من المواضيع التي كانت في السابق مهملة، مثل تاريخ الحركات التي حدثت بين الطبقات في الاتحاد السوفياتي منذ سنة ١٩١٧، والتحليل التاريخي لتكوين المجتمع السوفياتي[١٢٢]، ولعل الأهم في هذا المضمار، هو التحسن الذي حدث في طرق البحث التاريخي، وقد سار هذا مع تقدير جديد لطرق البحث التاريخي الغربية أو البورجوازية، ورغبة في الأخذ بها، غير أنه كان يرجع بصورة أساسية إلى الاستقرار الجديد لعلم الاجتماع في الاتحاد السوفياتي بعد تدهوره في الثلاثينات، وإلى التعاون المتزايد بين المؤرخين وعلماء الاجتماع[١٢٣]، ونظراً لاضطرار المؤرخين السوفيات إلى كشف الطرق الجديدة في التحليل الاجتماعي، فقد أصبح لزاماً عليهم منذ الستينات، أن يزيدوا من اهتمامهم بعلوم الضبط وتقنيات الآلات الحسابية، والإحصائيات والتحليل التركيبي واستعمال النماذج والقوالب[١٢٤]، كما أن

(١٢٢) انظر: تأريخ الطبقة العاملة في الاتحاد السوفياتي إبان السنين الاولى للتصنيع» (١٩٥٩)، أرتجانجان «عوامل مكننة الزراعة في الاتحاد السوفياتي بين سنة ١٩٢٩ـ١٩٥٧ (١٩٦٠) تريفونوف: مقالات عن تاريخ الصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي خلال سني ١٩٥ـ١٩٣٧) (١٩٦٠).

(١٢٣) انظر كون «التاريخ وعلم الاجتماع» (١٩٧٠ وترجمته الفرنسية ١٩٧١)، روجانسيف: العلوم الاجتماعية في الاتحاد السوفياتي والزمن الحاضر» (١٩٦٨)

(١٢٤) انظر جلمان ـ فينجرودورف وهروجنكو علم الضبط والعلم التاريخ (١٩٦٧)، بارج: مفترضات في صياغة البحث التاريخي» (١٩٦٧) مسائل في طرق البحث وفي علم التاريخ» (بحث جماعي ١٩٦٤)، ستايرمان «عن مسألة التحليل التكويني في التاريخ» (١٩٦٨). كاهك «هل نحتاج إلى علم تاريخ جديد» (١٩٦٩). أما عن المساهمة السوفياتية في ميادين خاصة (كاستعمال تقنية الحسابات) فسنشير إليها فيما بعد في المكان المناسب لها، ويكفي أن نضيف هنا الإشارة إلى قائمة الكتب والمقالات التي أوردها جفتر ومالكوف في بحثها «جواب على التساؤلات عن علم التاريخ السوفياتي» ص ٢٠٧ في كتاب «التأريخ والنظرية ج ٦ (١٩٦٧).

الجهود في اكتساب بصائر جديدة، لم تقف عن هذه النقطة[١٢٥]، فبالإضافة إليها لفت ب.ف بورشنيف الانتباه إلى علم النفس الاجتماعي، أو علم نفس الجماعة[١٢٦]. وتقوم جامعة موسكو بمشروع كبير في تحليل المحتوى، يهدف إلى تتبع تطور القيم الأخلاقية في عصر النهضة عن طريق فحص منظم لمادة النصوص التاريخية لتلك الفترة. فإذا كان علم التاريخ السوفياتي قد بدأ في سنة ١٩٥٠ متباطئاً في استعمال التقنيات الحديثة المتقدمة، فانه بعد عشرين سنة استطاع هضمها هضماً تاماً، ولعل هذا من وجهة نظر تطور العلم التاريخي، أهم التبدلات التي حدثت منذ سنة ١٩٥٦.

وبالطبع كانت توجد عدة عوامل تساهم في تبدل مواقف المؤرخين السوفيات ومعالجتهم، ومن أبرز هذه العوامل، هي التطورات الجديدة التي واجهت علم التاريخ السوفياتي، عندما التفت إلى التاريخ الآسيوي والافريقي وأولاه اهتماماً يفوق ما أولاه للتاريخ الروسي أو الأوربي وذلك قبل وبعد تأسيس معهد مستقل للتاريخ العالمي في سنة ١٩٦٩، وكما أشار ك.أ. انتونوف لم يكن من السهل الأخذ بالرأي القائل أن «العالم كله يتبع سلسلة واحدة متشابهة من الأدوار» عندما نرى أمام أنظارنا التطورات الصناعية في الأمم الآسيوية والأفريقية تحدث بصورة مخالفة كلياً للأنموذج الأوربي الكلاسيكي[١٢٧]، وهذه مسألة سنعود إليها فيما بعد. أما هنا فيكفي القول إن تحدي التاريخ العالمي. كان، لأغراض عملية، مظهراً جديداً لعصر ما بعد ستالين، حيث ان التأكيد الذي وضعه المؤتمر العشرون للحزب، على دور العالم الثالث، هو الذي وجه انتباه المؤرخين السوفيات عموماً إلى تاريخ آسيا وأفريقية ووسع آفاقهم ودفعها إلى مراعاة أوضاع لم تلق من قبل من غير

---

(١٢٥) بورشنيف «علم النفس الاجتماعي والتاريخ» (١٩٦٦) و «التاريخ وعلم النفس» ١٩٧٠ نشر باشراف بوشنيف وانسفيروفا.

(١٢٦) جار من «معالجة لغوية» ١٩٦٩.

(١٢٧) التأريخ وعلم الاجتماع المذكور أعلاه (١٩٦٤) ص ٢٨٢.

الاختصاصيين إلا اهتماماً قليلاً، وبذلك أخذت مواجهة مشاكل تاريخ العالم، تلعب دوراً ملحوظاً في عملية إعادة التقييم التي كانت سمة علم التاريخ السوفياتي بعد سنة ١٩٥٥، وكانت النتيجة ضعضعة الثقة في كل من الصور التقليدية والطرق التقليدية، كما أدت إلى تقوية البحث عن طرق جديدة.

وفي أوربا الغربية تعتبر سنة ١٩٥٥ نقطة تحول، كما لاحظنا من قبل[١٢٨]، إذ في تلك السنة بدأت الأفكار النابعة بصورة مباشرة أو غير مباشرة من مارك بلوش ولوسيان فيبفر، تظهر أثرها التام. ولسنا هنا بمعرض مناقشة أعمال بلوش وفيبفر[١٢٩]، ويكفي أن نقول أن «المدرسة» التي جمعاها حولهما، ومجلة «الحوليات Annals» التي أسساها سنة ١٩٢٩ كأداة لنشر أفكارهما الجديدة المتحدثة عن التاريخ ودوره، سرعان ما أصبحت الدافع المثير الذي وجه فكر المؤرخين الغربيين الأوربيين نحو ميادين لم تكن مألوفة واقتراح طرق جديدة وأساليب جديدة للمعالجة. لقد كان تأثيرهما سائداً ولكنه طبعاً، لم يكن الوحيد. ففي إنكلتره مثلا كان تحليل السير لويس نامير للقوى السياسية والاجتماعية المؤثرة في السياسة البريطانية خلال القرن الثامن عشر، قد أضاف أبعاداً جديدة[١٣٠]، غير أن نامير كان حذراً في عرض أفكار عامة، وكان عمله منصباً على البناء السياسي في زمن أخذ فيه التأكيد ينتقل من التاريخ السياسي إلى دراسة المجتمع عموماً، ولذلك كان تأثيره محدوداً ومحصوراً في مداه وفي ديمومته، فلما جاءت سنة ١٩٥٥ كان أثره قد زال. ومن الطبيعي أن بلوش وفيبفر، كان لهما تأثير كبير في داخل فرنسا

---

(١٢٨) انظر أعلاه ص ٣٠.

(١٢٩) تم درس كل الموضوع بإعجاب في مقالة رائعة كتبها جلينسون بعنوان «البحوث التاريخية في فرنسا بين سنتي ١٩٤٠ - ١٩٦٥ (١٩٦٥) وانظر أيضاً هـ. س هيوز «الطريق الوعرة» (١٩٦٦ ص ١، وبالإضافة إلى المصادر التي ذكرها جلينسون (ص ١٦) انظر مقال ديفيز عن مارك بلوش في مجلة «التاريخ» مجلد ٥٢ (١٩٦٧).

(١٣٠) انظر: نامير «تركيب السياسة» عند تولي جورج الثالث (جزءان ١٩٢٩) و «انكلترة في عصر الثورة الأمريكية» (١٩٣٠).

وخارجها، حتى قبل سنة ١٩٣٩[١٣١]، غير أن العمل في تثبيت مكانتها اضطـرب خلال الحرب، وتطلب وقتا أطول، فلم يتثبت نهائياً إلا سنة ١٩٥٥ التي يمكن اعتبارها السنة التي تم فيها النصر النهائي لـ «معارك التاريخ» التي كرس لها فيبفر حياته[١٣٢] غير أن مناهج «مدرسة الحوليات» وطرقها لم تقبل دون مصاعب جاءت من التاريخية الألمانية خاصة[١٣٣]، وقد لخص موملیانو الوضع بدقة عندما قال في سنة ١٩٦١: «إنها أخذت تحتل مكانها في أوربا الخاضعة للمدرسة التأريخية الألمانية» كموقد مركزي لمؤرخي المستقبل[١٣٤]، وقد أيدت التطورات التي حدثت منذ ذلك الزمن حكمه.

وفي صميم منهاج مدرسة الحوليات طلب ملح، لتوسيع أبعاد التاريخ وتوسيع نظرة المؤرخ، وهذا لم يكن طلباً عند بلوش وفيبفر وحدهما، وإنما كان أيضاً طلب أتباعهما من الجيل الثاني، وخاصة فرناند بروديل الذي خلف فيبفر في ١٩٥٦، كمدير لقسم العلوم الاقتصادية والاجتماعية في المدرسة العملية للدراسات العليا[١٣٥]، وشارل مورازي . كان التاريخ الجديد يراد

---

(١٣١) في إنكلتره مثلاً أثرت أفكار ومعالجات بلوش على أبحاث م.م. بوستان وبالمقابل كانت كتابات بوستان، وخاصة بحثه «سنويات الخدمات العمالية» (١٩٣٧) ذات تأثير عميق على عمل العلماء الفرنسيين المختصين بدراسة العصور الوسطى.

(١٣٢) انظر: جلنسون:، المصدر اعلاه ص ٥٠-٥١.

(١٣٣) انظر بصورة خاصة: «ريتر تأملات» ص ٢٩٦ - ٣١٥م ٦ من محاضر المؤتمر الدولي العاشر لعلوم التاريخ (١٩٥٥) وكذلك فصل «حول المشاكل التي تواجه كتابة التأريخ» من كتاب ريتر «حياة الماضي» (١٩٥٨) (وكتاب واجنر «الكتابة التاريخية الحديثة (١٩٦٠) ص ٨٩ - ١١٢، بورن «الطريق الجديد في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في فرنسا» (١٩٦٤) وستايز «الحوليات: أسسها وطرقها في علم التأريخ الجديد» (١٩٦٧)، وهي تعطف على الحركة رغم ما تذكره من انتقادات. أما عن نقد احدث وانضج فانظر دي بونج «كتابات جديدة في فرنسا» (١٩٦٩).

(١٣٤) موملیانو «دراسة في كتابة التاريخ» ١٩٦٦ ص ٢٣٣ وقد أعيد طبع ترجمة الأصل الذي نشر في مجلة التاريخ الإيطالي ١٩٦١.

(١٣٥) عن بروديل: انظر جلينسون المصدر المذكور أعلاه ص ٥٧-٦٢ وستايز المذكور أعلاه ص ٢٧-٣٧.

منه على حد التعبير المشهور لفيبفر[١٣٦] أن يكون تاريخاً شاملاً أي انه يهتم بكل الفعاليات البشرية » كل ما في الإنسان أو يعتمد على الإنسان أو ينتجه الإنسان أو يجربه الإنسان، مما له أهمية في وجود الإنسان ونشاطه وأذواقه وأزيائه »[١٣٧]، ولا ريب في أن هذا يتعارض مع « تاريخ الحوادث » التقليدي بشكل واضح وصريح. والواقع. أن فيبفر لم يكل في معارضة « التاريخ التقليدي » الذي ركز كل جهده، بتأثير التاريخية الألمانية، على نتائج الحوادث الفردية ـ وخاصة حوادث التاريخ السياسي المدعمة بالوثائق والتي حاولت أن تفسرها وتبررها فكرياً بسلسلة فرضية من السبب والنتيجة. والتاريخ بموجب هذه النظرة، كما قال بروديل: هو أكثر بقليل من « نوع جديد من الحوليات التي بسبب قصر بصرها لم تفلح في تمييز الأشجار من الغابة ».

أكد فيبفر على أن التاريخ الجديد يجب أن يحرر نفسه من الوثائق وما تفرضه من تحديدات، وأن عليه أن يستعمل كافة ما يستعمله الإنسان: اللغة، والعلامات، وأدلة الريف، ونُظم الحقول، والأساور والقلائد ـ وكل مصدر آخر يمكن الحصول عليه، وبالاختصار: فإن عليه أن يكون منفتحاً لكل مكتشفات وطرق العلوم الأخرى كالجغرافية، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعليه في نفس الوقت أن لا ينجرف في النزعات التي برزت في العشرينات والثلاثينات في تقسيم نفسه إلى عدد من التخصصات (التاريخ الاقتصادي، تاريخ الأفكار.. الخ) التي يسير كل منها في طريقه الخاص، ففصل التاريخ عن مضماره الاجتماعي هو أسوأ من عبث، ومن المؤكد أنه كان مضللاً[١٣٨]، وعلى أي حال فان البحوث المتخصصة في التاريخ الاجتماعي أو

---

(١٣٦) انظر: مورازي « ثلاث مقالات عن التاريخ والثقافة » (١٩٤٨ وكتاب « منطق التاريخ » (١٩٦٧).

(١٣٧) « نحو تاريخ آخر » (١٩٤٩، ١٩٥٣) ص ٤٢٨ في كتاب فيبفر « محاربات من أجل التاريخ » (١٩٥٣).

(١٣٨) لقد أشار بسخرية إلى مدى تضليلها، سدني بولارد في كتابه « التاريخ الاقتصادي ـ علم المجتمع « ص ٦ـ٨) « الماضي والحاضر » عدد ٣٠ (١٩٦٥)

الاقتصادي، قيمتها بالدرجة الأولى في قدرتها على كشف واجبات جديدة، وسبل جديدة، في معالجة التاريخ ككل[١٣٩]، فالعمل الأول للمؤرخ هو طرح الأسئلة، وقد قال بلوش: إن الوثيقة هي شاهد قلما يتكلم، شأن معظم الشهود، ولذلك فإن «التساؤلات هي أول ضرورة لكافة البحوث التاريخية الجيدة التوجيهية» وإن عمل المؤرخ متصل مباشرة بنوع الأسئلة المطروحة[١٤٠]، فالتاريخ لا يزيد على أي علم في كونه يبدأ من مجرد تكديس الحقائق. إن «الماضي» غير قائم حالياً، وفكرة إعطاء الحياة لهذه «المجموعة من الأجساد الميتة» بإعادة تجميع البقايا من الأجزاء إنما هي خيال خادع قام عليه التاريخ التقليدي. فالمؤرخ هو الذي يخلق موضوع دراساته بنفس الشكل الذي يفعله العالم تماماً[١٤١]، ويؤكد بلوش بقوة على أنه ليس للتاريخ أن يطالب بمقام بين الأشكال الجدية للمعرفة، ما لم يقدم «تصنيفاً عقلياً ومعقولية» تقدمية. بدل التعداد البسيط المفكك غير المحدود[١٤٢].

إن المنهاج العام الذي وضع خطوطه كل من بلوش وفيبفر ووصل أوجه في إعادة التأكيد على الصفة العملية لعمل المؤرخ بالمقارنة مع التمييز الذاتي الشخصي المناقض للعلم للتأريخية الألمانية، والحق أن الفكرة الأساسية من بلوش إلى بروديل هي الاعتقاد بالقيمة العلمية للتاريخ - حتى وإن كان لا

---

(١٣٩) انظر: بون المذكور أعلاه (١٩٦٤) ص ٣٠٨

(١٤٠) انظر: بلوش: «إعتذار للتاريخ» (١٩٤٩) ص ٢٦ وديفيز «مارك بلوش» المذكور اعلاه (١٩٦٧ ص ٢٧٤) ويقول بلوش «انها ليس سوى الحصول على معلومات في جانب واحد: انها تبدأ بالروح، فهي تختلف عن العلم الذي يبدأ من الملاحظات السلبية، فهي لذلك غير مثمرة.

(١٤١) «ليس الماضي هو الذي يعرض: الماضي الذي هو مجموعه اشياء حيث يبحث فيها المؤرخ ليجد فيها ما يستحق النظر، إن المؤرخ لا ينتج الماضي ولا يخلق التاريخ» هذه هي صياغة فيبفر في مقدمة المبرمجة المشهورة التي قدم بها كتاب مورازي «ثلاث مقالات عن التاريخ والثقافة» (١٩٤٨) ص ٨

(١٤٢) «الاعتذار» ص ١٤١.

يزال علماً في سن الرضاعة[١٤٣]، وهو من دون أي شك يفسر أثر أفكارهم على جيل قلق من ترهل التاريخ العرفي. وأسلوبه الخطابي وتفسيراته الشخصية واعتماده على النظرات غير المثبتة، واهتمامه بالأحداث السطحية ومجادلاته الزائفة وانغماره في مماحكات سطحية ليست بأصح من مدعيات معارضيها[١٤٤] يعتقد فيبفر أن التاريخ هو إعادة تكوين المجتمعات وكيان البشرية بواسطة البشر، ومن أجل أناس منغمرين في شبكة واقعية البشرية المعاصرة[١٤٥]. إن لهذا الاعتقاد عن التاريخ مبرر أو اتصالاً مباشراً بجيل ما بعد الحرب، مما كان يفتقده التاريخ العرفي كلياً، ومن المهم أنّ جيرهارت ريتر، رغم كل شكوكه في المسلّمات الأساسية لـ «مدرسة الحوليات» اضطر إلى الاعتراف بأنها أخذت تظفر تدريجياً بأنصار في المانيا منذ سنة ١٩٤٨[١٤٦]، غير أن هذه الحقيقة المعروفة لا تفسر وحدها التقدم المنتصر لـ «التاريخ» الجديد بعد سنة ١٩٥٥، كما أن نظرات بلوش وفيبفر النفاذة وهجماتهم الفاتكة على جفاء وعدم كفاية «تاريخ التاريخية» لم تكن جديدة الأساس، إذ أن فكرتهم عن التاريخ لم تختلف في أسسها إلا قليلاً عن أفكار

---

(١٤٣) المصدر السابق ص ١٤ «هذه النظرة المتأخرة في ميدان المعرفة العقلية، أو بعبارة (أصح) القديم المختفى بشكل حكايات اختلطت خلال ازمنة طويلة بالاساطير، وارتبطت ببعض الحوادث المباشرة، فأصبحت موضوعاً للدراسة والتحليل العقلي» قارن هذا بعمل أوثق لبراوديل «ستوكهولم ١٩٦٠ ص ٢٩٩، من الحوليات مجلد ١٩٦١/١٦، وهي بنفسها مقياس للاساس الذي استقر خلال عشرين سنة اعيدها مع الاحراز، ليس المطلوب تواريخ متفرقة، وانما المطلوب تاريخ علمي موحد.

(١٤٤) «الاعتذار» ص ١٠٢ لقد عبرت عن رأيي في المناقشات المتفرقة التي يلتذ المؤرخون المحترفون بإثارتها» الألعاب العالمة عن ظهور طبقة الاشراف الزراع، أو عن أسباب الثورة الفرنسية في كتابي «التاريخ والرجل الاعتيادي» (١٩٦٧) ص ٨، ولا أريد أن أعيد ما ذكرته قبلاً.

(١٤٥) مقدمة مورازي «المقالات الثلاث» ص ٨

(١٤٦) «تأملات» ص ٣١١ في محاضر جلسات المؤتمر العشرين ١٩٥٥ مجلد ٦ كثير من المؤرخين الالمان تركوا الاهتمام بـ «التطور» و «أصول» واهتموا بدلاً منها بالتحليل التركيبي على النمط الفرنسي لبعض الفترات أو الافكار كالإقطاع وعصر النهضة.

هنري بير من الجيل الأسبق، والواقع أن هنري بير قال كل ما يمكن قوله عن ما يتعلق بالنظرية العامة، وذلك في كتب لا تزال جديرة بالقراءة والإفادة - مثل كتاب «التاريخ التقليدي» و «التركيب التاريخي»[١٤٧]، أما الجديد عند بلوش وفيبفر، فهو أنهما فتحا الطريق من التاريخ القديم إلى الجديد ولم تكن مساهمتهما الأساسية من فكرتهما العامة عن التاريخ، بقدر ما هي توضيحهما المنتصر بأن ذلك ممكن التحقيق، وبكيفية إمكان تحقيق ذلك. فالتغيير الحقيقي بالاختصار كان في الطريقة، فهما لم يكتفيا باتخاذ موقف نظري، كما فعل بير، وإنما وضعا نموذجاً عملياً لكتابة التاريخ بالشكل الذي ارتأياه ووصلا في التطبيقات العملية الى الأهداف الجديدة ورسما طرقاً متقنة لتطبيقها، ولما كانت جهودهما جزئية وإنجازاتهما غير كاملة، فقد أتم ما تركاه خلفاؤهما وطلابهما، أمثال بروديل وفيلار، ولابروس، وموارزي، وغيرهم، وبهذه الطريقة تحققت تدريجياً طريقة جديدة في البحث ألهمتها نظرات نافذة جديدة، وهي طريقة بحث تجلت بأروع مظاهرها في الكتاب الذي يفتح عهداً جديداً والذي نشر في سنة ١٩٤٩، عن عالم البحر الأبيض المتوسط في عهد فيليب الثاني[١٤٨] ليس من العسير تتبع خطوط التطور، فبلوش مثلاً انتقد المؤرخين الذين يرون مجرى التطور البشري وكأنه مكون من تعاقب اندفاعات قصيرة ولكنها قوية، وأقصى ما تدوم كل منها عدة أجيال وقد أكد بدلاً منها على استمرارية هائلة للتاريخ[١٤٩]، وكان على بروديل أن يحكم فكرة «البقاء الطويل»[١٥٠] للتاريخ، وأن يؤكد على التفاعل بين الاستمرارية الطويلة المدى - «التاريخ الثابت تقريباً» للإنسان الملتف[١٥١] بمحيطه، اجل التفاعل

---

(١٤٧) نشر سنة ١٩٣٥ انظر ص ٢٣٩.

(١٤٨) «براوديل» البحر الأبيض المتوسط وعالمه في عصر فيليب الثاني» (١٩٤٩)

(١٤٩) «اعتذار للتاريخ» ص ١٦-١٢»

(١٥٠) «الدوام الطويل» (١٩٥٨) أعيد طبعها في كتاب براوديل «كتابات عن التاريخ» (١٩٦٩).

(١٥١) براوديل «البحر الابيض المتوسط» المذكور اعلاه ص ١٣ في الطبعة الاولى (١٩٤٩) أعيد طبعها في «كتابات عن التاريخ» ص١١

بينها وبين الاندافعات والتعاقبات القصيرة، التي تخترقها كاختراق الصخر ولكنها تحيطها كأمواج البحر، فتنتج كما يقول بروديل « ذلك الممر من عالم إلى عالم آخر هو » أعظم رواية إنسانية نسلط عليها الأضواء[١٥٢]، ولكن كيف أمكن تيسير « الاستمرارية الطويلة » لمعرفة التاريخ؟ إنها كشفت وجود بنية اجتماعية مستقرة، قادرة على استيعاب وتجاوز الاضطرابات السياسية القائمة، فالحاجة إذاً هي إلى تاريخ للتركيب، او تاريخ تركيبي، وهذا ما لم تستطع تقديمه التقنيات القديمة التي كانت في متناول المؤرخ والتي ركّزت على التبدل والتفرد والفرد، يضاف إلى ذلك أنه بالإمكان في التركيب الاجتماعي القائم، أن لا تميز السلسلة اللامتناهية من الأحداث الفردية المتتابعة « زهرات يوم منفرد تذبل بسرعة لدرجة أن لا يستطيع المرء الحصول عليها ثانية » وإنما أيضاً الألحان أو الدوائر المتكررة وخاصة دورات الحياة الاقتصادية، وارتفاع الأسعار والأجور وانخفاضها مثلاً، وكذلك أيضاً دورات الحياة الثقافية، دورات لا يستطيع إلا قليل من العظماء خرقها، ولكنها أمور يتبين عند الفحص الدقيق أنها كانت تقيد كلياً حتى الذين يدعي التاريخ التقليدي أنهم من أعظم صانعي الاحداث -[١٥٣]، إنها هي الروابط الموحدة، كما يقول الاقتصاديون، وهي تواجهنا أيضاً بظاهرة لا تستطيع فيها عملية البحث التاريخي الاعتيادية أن تصفها. ومع هذا فإن من العناصر الثلاثة التي تعمل في تكوين التاريخ: التركيب، والتوحيد، والحوادث، أو بتعبير بروديل « الزمن الجغرافي »، « الزمن الاجتماعي »، و « الزمن الفردي » - والمؤرخ يهتم (أو يجب أن يهتم) بالدرجة الأولى بالأول، لأن التركيب والتوحيد هما الهيكل الأساس الذي تتحدد فيه درامات الأحداث ويتحدد المسرح الذي يلعب عليه الفرد

---

(١٥٢) انظر جلينسون المذكور سابقاً (١٩٦٥) ص ٦٠.

(١٥٣) إن هلموت بوهم هو أحد المؤرخين الالمان من الجيل الجديد وممن تمثل طريقة بحث « مدرسة الحوليات » وقد أظهر بشكل مقنع وبمعرفة واسعة الطريقة التي تأثرت فيها سياسة بسمارك بدورة الرخاء واللسان في المانيا ابتداء من ١٨٥٠ حتى انتهت بـ ١٨٧٣ انظر بوهم « طريق المانيا نحو القوة الكبرى » (١٩٦٦).

دوره، فاذا ذهب الممثل، فان المسرح يبقى ليظهر عليه غداً أو بعد غد، آخرون لهم نفس اللمعان والجاذبية وقصر العمر.

إن التاريخ الذي يعالج بهذا الأسلوب يتطلب طرقاً جديدة، وإن مجرد تعداد الحوادث، مهما كانت البراعة في نظمها في سلسلة من السبب والنتيجة هي غير قادرة على الاستجابة للحاجات الجديدة وقد تصور بعض المؤرخين أنّ باستطاعتهم تفسير تقسيم إفريقية سنة ١٨٨٢ وكأنه سلسلة من ردود فعل جزئية ليس لها سبب أو غاية وهؤلاء المؤرخون لم يفلحوا في رؤية الدوافع الجديدة التي كانت تقوم بدورها، أو تبدل الأمزجة، وقد قدموا مثلاً نموذجيا بقصر نظر التاريخ المقتصر على سرد الحوادث[١٥٤]، إذ أن الحقائق التي يذكرونها قد تكون صحيحة، ولكنها ليست بذات أهمية[١٥٥]، وهم بتقيدهم الجامد بمجرى الحوادث والقرارات اليومية للسياسيين والإداريين، يكونون قد أهملوا الدورة الكبرى أو الرابطة التي تجمع هذه الحوادث والقرارات. أما المؤرخ المهتم بالوحدة فعليه أن يبدأ بداية مختلفة. إن تاريخ لم الشعث هو في الاساس تاريخ رياضيات: تاريخ خطوط بيانية وجداول تسجل التبدلات الديموغرافية وحركات الانتاج والأسعار وأمثالها من السلاسل التي لا توضحها إلا الأرقام، وينبغي ألا يُفْتَكرَ أن فائدة هذه الطريقة مقصورة على الميادين الاقتصادية، بل بالعكس فإن التاريخ الثقافي ـ وخاصة تاريخ الثقافة الشعبية ـ يخضع أيضاً للتحليل العددي. بدلاً من المعايير الشخصية في تقدير «عظماء الفنانين» و «عظماء الكتاب» ترى من الذي يحكم على الأشخاص بالعظمة، وأي مقياس يتخذ للحكم في ميدان تتبدل فيه الأذواق بكثرة وبسرعة؟ إن تحليل نوع وعدد ومؤلفي ما طبع وما قرىء في فترة معينة. مثلاً من ١٧٨٠

---

(١٥٤) انظر: روبنس وجالاغر: إفريقية والفكتوريين (١٩٦١) و «الاستعمار التجارة الحرة» (١٩٥٣ لنفس الكاتبين. وانظر نقدي «مقدمة للتأريخ المعاصر» (الطبعة الثانية ١٩٦٧ ص ٥٨ ـ ٦٤.

(١٥٥) انظر: ثورنتن: «معتقدات الامبريالية» (١٩٦٥) ص ٤٥

إلى ١٨٥٠، عليه أن يقدم نتائج مهمة لا تستطيع الطرق الأخرى تقديمها[١٥٦]، أما تاريخ التركيب فهو من جهة أخرى يحتاج أيضاً إلى طرق مختلفة، وهو مرتبط بعلوم الجغرافية والديموغرافية، والأثنوغرافية والمناخ والنبات، وقد صب بلوش وفيبفر أكثر تأكيدهما على العلاقة بين التاريخ والجغرافية، اللذين أكد بلوش على أنهما متطابقان في الأساس[١٥٧]. إن الوحدة في التاريخ، في رأي بلوش، هي ليست لوردية العصور الوسطى، أو الأقسام الإدارية للملكية الاوربية، أو الدولة القومية الحديثة ـ وهنا نجد أن اختلافه الكلي مع المؤرخين التقليديين واضحاً ودقيقاً، ولا يقل عن الاختلافات التي بينهم حول التقسيمات القائمة على الزمن إنه يرى أن المنطقة الجغرافية هي الوحدة في التاريخ، وهي فكرة أعطاها بروديل شكلاً مقبولاً عندما خصص القسم الأول من كتابه عن البحر الأبيض المتوسط في زمن فيليب الثاني لبحث «التاريخ الجغرافي لمنطقة البحر الأبيض المتوسط، كوحدة ثقافية وتاريخية».

انتشر تأثير مدرسة الحوليات بسرعة في اوروبا، ففي إيطاليا أدى إلى «انسحاب» تدريجي من المواقف الكروتشية[١٥٨]، أما في المانيا فقد أثر ـ مع تكييف ملحوظ ـ على المواقف التي وقفها من التاريخ كل من شايدر وكونز وبوسل[١٥٩] (دون غيره من المختصين في دراسة العصور الوسطى) وكذلك

---

(١٥٦) انظر مثلاً ريموند وليمس: الثقافة والمجتمع ١٧٨٠ ـ ١٨٥٠ (١٩٥٨) أو كيبولا: تعلم القراءة والنمو في الغرب (١٩٦٩) ومن سوء الحظ أن الكتاب الذي أشرف على نشره كانتور وورثمان «تأريخ الثقافة الشعبية» (١٩٦٨) لا يعير التحليل المحتوي إلا اهتماماً ضئيلاً.

(١٥٧) ديفيز: المصدر المذكور أعلاه (١٩٦٧) ص ٢٧٥.

(١٥٨) مومليانو: المصدر المذكور أعلاه (١٩٦١) ص ٢٣٧ في «دراسات في عالم التأريخ ١٩٦٦.

(١٥٩) ث. شيدر: التركيب ودور الفرد في التأريخ» (١٩٦٢) كوثري وشايدر في «التأريخ العلم والمحاضرات مجلد ٣ (١٩٥٢) بوس «التاريخ وعلم الاجتماع» (١٩٦٥) و «الجانب الاجتماعي في التأريخ، آراء حرة علم التأريخ والشكل المثالي (١٩٦٥) أنظر أيضاً المجلد الذي جمع فيه شيدر ومقالاته التي أشرنا إليها» (١٩٥٨) وترجم إلى الانكليزية بعنوان «الدولة والمجتمع في زماننا (١٩٦٢).

على الجيل الجديد من المؤرخين (امثال هـ.م. وهلر) وقد نمى ذلك التأثير بعد سنة ١٩٤٥[١٦٠]. أما في إنكلتره فقد أصبح أثره ملحوظاً في أبحاث رودي، وهو بسباوم ولاسليت، وي.ب تومبسن[١٦١]، فضلا عن آخرين غيرهم. غير أن ذكر أسماء بعض الأشخاص والحوادث، لا يكفي مطلقاً لبيان مدى هذا الأثر القوي، فالنقطة الأساسية في التاريخ الجديد، والميزة التي جعلته مقبولاً بهذا الشكل الواسع، ترجعان إلى أنه لم يحاول فرض أفكار أو فلسفة جديدتين، ولكنه دعا إلى موقف جديد وطرق جديدة. إنه لم يربط المؤرخ بمرقد صلب من النظريات، وإنما فتح آفاقاً جديدة. ولعل كلاً من بلوش وفيبفر لم تكن له فلسفة متماسكة في التاريخ[١٦٢]، فإن الحقيقة لم تكن لتزعجهما كثيرا، إذ كانا يعتقدان أن تجديد التاريخ يتأتى من التطبيق وليس من النظرية، وبذلك فان بتأثير «الحوليات» انطمست في النسيان المناقشة القديمة حول ما اذا كان التاريخ فناً أو علماً، وكان لهذا الانطماس سبب وجيه. إن محاولة المثاليين الجدد الألمان إقامة «ستار حديدي» بين التاريخ والعلم، أو بين عالم التاريخ وعالم الطبيعة كانت دائماً مغلوطة، إذ أنها بنيت على أفكار عن البحث العلمي وعن البحث التاريخي، كان قد ثبت بطلانها منذ أمد غير قصير، وقد أصبحت الأخطاء التي يقوم عليها هذا الانقسام، معروفة للجميع ولا حاجة إلى إعادتها هنا[١٦٣]، والمسألة هي أنه عندما انخرق بالون المثاليين الجدد، اتضح أن اهتمام المؤرخين التقليديين بالرواية الوصفية وبالفردية والتفرد، إنما هو ناجم عن اختيار طوعي وليس ضرورة منطقية

---

(١٦٠) انظر الكتاب الذي أشرف وهلر على نشره «علم الاجتماع الألماني الجديد (١٩٦٦).

(١٦١) انظر: رودي «الجماهير في التأريخ» (١٩٦٥) هوبسباوم (الثوار البدائيون (١٩٥٩) «الرجال العمال» (١٩٦٤) لسليت «العالم الذي فقدناه» (١٩٦٥) تومسن «تكوين الطبقة العاملة البريطانية» (١٩٦٣).

(١٦٢) انظر: كون «فلسفة التاريخ في القرن العشرين» ج ٢ (١٩٦٤ ص ٥٠ - ٥٤

(١٦٣) إن رفض ادجار وند «بعض نقاط الاتصال بين التاريخ والعلم الطبيعي» (١٩٥٨) وباركلو «الطريقة العلمية وعمل المؤرخ» (١٩٦٢) ومن الطبيعي أن بلوش وضع النقطة الاساسية: «الاعتذار» ص ١٦.

تفرضها مادتهم عليهم، فقد أصبح الطريق ممهدا إلى رؤية للتاريخ، ولعمل للمؤرخ هما أكثر استجابة لدوافع العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية. لقد نفذ مؤرخو «الحوليات» من هذه الثغرة بثقة جديدة في إمكانيات العمل التاريخي، الذي ليس له إلا أن يثير الحماس.

والتاريخ عندما ينظر إليه من زاوية المؤرخين المتحررين من التعارض القديم بين التفرد الخاص والعام هو تاريخ علمي شأن أي «علم آخر» لا أقل ولا أكثر. يقول مارك بلوش: إنه «علم البشر». وليس علم الإنسان الفرد، وهو علم الناس، ليس الناس عموما ولكن الناس في المجتمع[١٦٤]، وكان إقرار بلوش بالعبارة المشهورة لفوستيل دي كولانج: التاريخ ليس تكديس حوادث من كل نوع مما حدث في الماضي، إنه علم المجتمعات الإنسانية»[١٦٥] مهماً، لقد كان هذا مفتاح الثورة التي أعلنها بلوش وفيبفر: إنه الانتقال من الفرد «الانسان المعزول» إلى «الإنسان في الجماعة، إلى المجتمع الذي لا بد أن يكون كل فرد جزءاً فيه شاء أم أبى[١٦٦]»، إن التاريخ الذي يبدأ بالفرد وينتهي عنده، والذي يأخذ العمل الفردي مقياساً له، قد لا يحتاج أن يكون علمياً، بل قد لا يستطيع أن يكون علمياً، إن تاريخ الإنسان في المجتمع هو علمي ولا يستطيع أن يكون غير ذلك، وإن أقرب ما يرتبط به هو علم الاجتماع وقد تمنى بلوش أكثر من مرة أن لا يرى تمييزاً حقيقياً بين التاريخ وعلم الاجتماع[١٦٧]، غير أنه وضع بنفسه إصبعه على الفرق الأساس: إذا كان الاهتمام الأول للعالم الاجتماعي متركزاً على تحليل مجتمع ثابت في زمن ما، فإن أبرز مظهر للمؤرخ هو إدراكه الزمن، ويقول بلوش أيضا: إن التاريخ هو

---

(١٦٤) المصدر السابق ص ٤

(١٦٥) بلوش: «الاعتذار» ص ١١٠ هامش ٤. انظر ديفيز «بلوش» المذكور سابقاً (١٩٦٧) ص ٢٧٨.

(١٦٦) انظر: وسترماير «الحوليات» المذكور أعلاه ص ٢٦ في كتابات في الأربعينات عن التأريخ الاجتماعي والاقتصادي «مجلد ٥٤ (١٩٠٧).

(١٦٧) المصدر السابق ص ١٦ ديفيز المصدر السابق ص ٢٧٨.

ليس مجرد « علم الإنسان »، وإنما هو « علم الناس في الزمن »[١٦٨]، وكان علماء الاجتماع يميلون إلى إقصاء التاريخ، باعتبار أنه لا علاقة له، أما هو فقد أكد باعتزاز على أن السبيل الوحيد لفهم الحاضر، هو الابتعاد عنه، ورؤيته كجزء من عملية مستمرة[١٦٩]، وإن المساهمة الأساسية للمؤرخ في علم الاجتماع، هو إبرازه البعد التاريخي، والقدرة على وضع الحاضر في مضماره، والحماية من أخطار النظر القصير، الذي يحيق بالاقتصاديين وعلماء السياسة كما يحيق بمؤرخي التاريخ[١٧٠].

لقد توجهت مدرسة الحوليات إلى العلوم الاجتماعية للحصول على آراء وأشكال وطرق جديدة، وبذلك تتحرك بنفس الاتجاهات التي كان يسير عليها المؤرخون في الولايات المتحدة، ومن المؤكد أنه كان بين حركتي التجديد تواز كبير، والفرق بينهما هو في تأكيد الجانب الفرنسي على الإحساس بالزمن، وهذا بلا ريب هو السبب الذي أصبحت فيه على يدهم الهياكل النظرية التي اقترحتها العلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أداة أكثر مرونة مما هي في الولايات المتحدة، وكما قال موملیانو « أعطت الحوليات » فرنسا نموذجاً من التبادل بين علم الاجتماع وعلم التاريخ « هو أعمق وأشد تنوعاً من المثال الامريكي[١٧١]»، ولذلك كانت أقدر على اكتساب الأنصار، ومن جهة أخرى، فان معالجتهم فيها كثير من عناصر الشبه مع معالجة الجيل الحالي من المؤرخين السوفيات الذين حاولوا تبادل الآراء

---

(١٦٨) « علم البشر » وينبغي أن نصف « البشر في الزمان » « الاعتذار ص ٤ »

(١٦٩) وستماير: المذكور أعلاه ص ١٤

(١٧٠) يهاجم براوديل، مثلاً، الاقتصاديين لأنهم يتخذون أساليب المراسلين في خدمة الواقع أو خدمة الدولة » (انظر جلنسون: المذكور أعلاه ص ٥٨ : ووستماير المذكور أعلاه ص ٣٢.

(١٧١) موملیانو: المذكور أعلاه (١٩٦١) ص ٢٣٣ في « دراسات في علم التأريخ » ١٩٦٦

معه[١٧٢]، فكلاهما عدو لأي شكل من القَدَرية الاقتصادية[١٧٣]، كما أن كليهما مقتنع بإمكان وضرورة معالجة للتاريخ تكون علمية بأدق ما في هذه الكلمة من معنى. إنهم ينقلون الاهتمام من التفرد والتفخيم إلى التركيبات والترابطات التي تحدد وتكيف الاختيار الشعوري للفرد، وإلى «الاجتماعية اللاشعورية» التي هي علميات أعلى من المرايا اللامعة السطحية، التي تعودتها أبصارنا[١٧٤]، إن المؤرخين الذين يعملون تبعاً لتقاليد بلوش وفيبفر، فتحوا الطريق لحوار مع مؤرخي العالم السوفياتي، أو على الأقل قدموا لهم ملاحظات نافذة ومبتدعات في طريق البحث، يستطيعون الإفادة منها، وهم بالفعل مستفيدون.

إذا حاولنا تلخيص الاتجاهات الحديثة في الدراسة التاريخية منذ سنة ١٩٥٥ فيمكننا القول بأنها تتميز بانعطاف من أهم خصائصه الرفض العام للمفترضات الأساسية للجيل السابق. وهذا رافقه تجديد الاهتمام في نظرية التفكير التاريخي وكتابته[١٧٥]، غير أن هذا البحث النظري يركز بالدرجة الأولى على تحليل - وليس على نقد - ما يفعله المؤرخ التقليدي. أو بعبارة أخرى، أنه يميل إلى الإقرار بكفاية الهيكل العام التقليدي ولذلك فان على

---

(١٧٢) انظر: بورن المذكور أعلاه (١٩٦٤) ص ٣٠٧.

(١٧٣) يقول براوديل (البحر الابيض المتوسط وعالمه ص ٣٠٧) الاقتصاد يشكل السياسة والاجتماع والثقافة، ولكن التكرر حقيقة «قارن هذا القول بملاحظات جفتر وماليكوف في مقالهما» إجابة إلى تساؤلات عن علم التاريخ السوفياتي ص ١٨٤، ١٨٧-١٨٨، ١٩٢ المنشورة في كتاب «التاريخ والنظرية مجلد ٦ (١٩٦٧).

(١٧٤) براوديل «الديمومة الطويلة» ص ٧٤٠ في «الحوليات» (١٩٥٨) أو ص ٦٣ في كتابات عن التاريخ: أنظر جلنسون ص ٦٢

(١٧٥) مثلاً جاردنر: طبيعة التفسير التأريخي (١٩٥٢) وكتاب «نظريات التأريخ ١٩٥٩ الذي أشرف على طبعه جاردنر، داري: القوانين والتفسير في التاريخ (١٩٥٧) جالي: الفلسفة والفهم التأريخي (١٩٦٤)، دانتو: الفلسفة التحليلية للتأريخ (١٩٦٥)، وايت، اسس لمعرفة التأريخية (١٩٦٥)، جروشين: مقالات عن منطق البحث التاريخي» (١٩٦١)، بوبرينسك: المشاكل الفلسفية لعلم التأريخ (١٩٦٩) جوريفيش: القانون العام والانتظام في التأريخ (١٩٦٥).

الفلاسفة ـ وليس على المؤرخين ـ أن يهتموا بالبحث عن طرق جديدة يقدمها. والواقع أن مساهمتهم في تكوين الاتجاهات الحالية لم تكن كبيرة. لذلك يكفي في هذا المضمار أن نشير إليها عرضياً(١٧٦)، فالظاهرة العامة للاتجاهات الحالية هو ربط التاريخ بالعلوم الاجتماعية، بعد أن كانا من قبل يعتبران متعارضين. والواقع أنه بالرغم من الاختلاف الذي لا يزال قائماً حول الماهية الدقيقة للعلاقة بينهما، فإنه عملياً لا يوجد أي مؤرخ يشك في العلاقة بينهما، اللهم إلا إذا كان يعلن عن نفسه من بقايا الجيل الأقدم(١٧٧)، وهذه بأوسع معانيها هي المساهمة الكبرى لمدرسة «الحوليات» التي ارتبط بها بصورة غير مباشرة عدة كتاب. فقد ألقى هـ. كار مثلاً سلسلة محاضرات ممتازة سنة ١٩٦١، عن طبيعة التاريخ لم يذكر فيها بلوش أو فيبفر أو «الحوليات» ولكنه قال: إن «العلماء» وعلماء الاجتماع والمؤرخين كلهم مشغولون في فروع مختلفة من دراسة واحدة، هي دراسة الإنسان ومحيطه وأثر الإنسان على محيطه، واثر المحيط عليه»(١٧٨)، وهو في هذا القول يدعو إلى عقيدة كانا قد جعلاها بالقول والفعل، عقيدة عامة لدى المؤرخين في كل مكان.

لخص المؤرخ الامريكي هـ. ستيوارت هيوز، النتائج الناجمة عن هذه التطورات بأحسن صورة أو على الأقل عرض هذه النتائج بشكل يراه معظم المؤرخين اليوم مقبولاً(١٧٩). لقد أراد ستيورات هيوز أن يقتصر على قبول أفكار العلوم الاجتماعية وأصنافها، باعتبارها فرضيات ذات درجات منوعة في

---

(١٧٦) لقد ناقشها بتفصيل أوسع وأنسب الاستاذ بول ريكور في الفصل الاول عن الفلسفة، والفصل السابع قسم ٣ فرع أو فقرة ٤ أنظر أدناه ص ١٢٥٩ - ١٢٧٦.

(١٧٧) انظر المناقشة عن التأريخ وعلم الاجتماع، وعلم الانثروبولوجيا الانسانية التي وردت في الماضي والحاضر» رقم ٢٧ (١٩٦٤) ص ١٠٢-١٠٨.

(١٧٨) كار: ما هو التأريخ (١٩٦١) ص ٨٠

(١٧٩) هـ. س هيوز «المؤرخ والعالم الاجتماعي» (١٩٦٠)، وقد اعيد نشرها في الكتاب «التعميمات في الكتابة التأريخية» (١٩٦٣) الذي أشرف على نشره رياسانوفسكي و رزنيك. أنظر أيضاً هـ.س هيوز «التأريخ كفن وكعلم» (١٩٦٤) ص ١-٢١.

مداها وفي قوة تفسيرها، فهي ليست «كاملة» ولا «نهائية»، إنه يرفض «اي فرض علوي ميكانيكي لنظرية العلم الاجتماعي على النثر التاريخي التقليدي» ولا يقر ترك الأشكال الأدبية الموروثة والمعقولة، وهو يقول: إنه رغم ذلك لا يوجد تمييز أساسي بين التاريخ والعلوم، وإن العلوم الاجتماعية تقدم مدى واسعاً ومنوعاً من الفرضيات القادرة تماماً على التطبيق التاريخي، وإن أهميتها تكمن في تمكين المؤرخين من تصفية وتوضيح كافة خطواتهم في التفسير، أو كما قال أحد المؤرخين الإنكليز: أن تكون موضوعية عندما تتوفر الحقائق، وأن يتجنب الافتراضات عندما لا تتوفر الحقائق(١٨٠)، ويرى هيوز أن أهمية نظرة بلوش للتاريخ هي في كونها «حررتنا من التقيد بشكل من الدراسة ضيّق هدف التاريخ»، ذلك هو إنجازه الكبير: فبتأثيره «رأينا أننا إذا غيرنا قليلاً من المنشور العرفي للرؤية التاريخية، فسنرى عالماً جديداً واسعاً من الإمكانيات».

إن أقوال ستيورات هيوز في معالجة التاريخ دقيقة ومحكمة، ولذلك فهي تحمل تبدل موقف المؤرخين في الخمس عشرة والعشرين سنة الماضية، حيث لم يعودوا مكتفين بالتاريخ التقليدي وطرقه، لأنه كان دائماً مسألة تشويش عقلي ليست له أفكار واضحة أو قواعد تفسير معترف بها(١٨١)، وهو يخلص من عرضه إلى التنبؤ بأن «دراسة التاريخ تدخل اليوم فترة من التبدل والتقدم السريعين، يشبهان ما تميز به علم الفيزياء في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين(١٨٢)، والمهم في هذا التقدم هو أن القوة المحركة وراءه نابعة من التطبيق، وليس من النظرية، فالاتجاهات الجديدة في التاريخ هي استجابة للتقنيات والطرق الجديدة التي يرجع إليها وحدها الفضل في حدوث هذه

---

(١٨٠) توماس. ك «الادوات والعمل» ص ٢٧٦ في ملحق التايمس الأدبي «طرق جديدة في التأريخ» (١٩٦٦).

(١٨١) هـ.س.هيوز «المؤرخ وعالم الاجتماع» المذكور اعلاه (١٩٦٠) ص ٢٠ منشور في كتاب «التعميات في الكتابة التأريخية» المذكور أعلاه (١٩٦٣).

(١٨٢) هـ. سز هيوز: التأريخ كفن المذكور أعلاه ١٩٦٤ ص ٢٠.

الاتجاهات، فهي تشبه التطور في الموسيقى الذي تكيف بالتحسين الذي أدخل على الآلات الموسيقية، والتطور في علم الفلك الذي اعتمد على القدرة على بناء تلسكوبات أقوى وأكفأ «إنها الطريقة التي تشغل مكاناً مركزياً في العمل»(١٨٣).

من الضروري أن نعود إلى الطرق الجديدة المتبعة عموماً في علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم الأنثروبولوجي، وكذلك إلى امتداد التاريخ إلى مناطق جديدة، كإفريقية، حيث وجدت حاجة إلى الطرق التقليدية. ولا ريب في أن طرق البحث الجديدة لا تزال في بعض الحالات فجة لم تف بكل الحاجات، غير أن إجراء التجارب عليها سيؤدي إلى تقدم أوسع، لا في الطريقة فقط، بل في التاريخ ذاته، حيث إن التاريخ الآن في مفترق الطرق، على قول كاتب بلجيكي مؤخراً، ولعله سيعبر عتبة العلم التي يقف عليها اليوم. وإذ ذاك يصبح «علم العلوم الإنسانية» ولكنه إذا لم يفعل ذلك وهرب من التحدي، فإنه سيواجه خطر خسران مكانته كعلم وكفن، وسيكون له وجود هزيل، ويصبح مجرد «هواية» تحظى بالاحترام والشعبية ولكنه يفقد أهميته الحقيقية، وقدرته على القيام بأي دور في الشؤون الإنسانية(١٨٤).

---

(١٨٣) جلينسون: المذكور أعلاه ص ٥٣

(١٨٤) انظر: ليبرون «التطور والتأريخ الكمي» ص ٦٠٠، ٦٠٥ في مجلة معهد علم الاجتماع (١٩٦٧)، وأنظر: باراكلو «التأريخ والرجل العادي» (١٩٦٧، ص ٥، إنه نوع من المتعة (...) من المؤكد أنها متعة سامية ـ انه متعة للرجل المتعب، وراحة للعالم الذكي أو المهندس (...) ومع هذا (....) فانه متعة.